من وحي كليلة ودمنة

المؤسسة العربية للدراسات والنشر



١٦

اعداد : راجي عنايت

رسوم : بَهجت عثمان

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

من وحي كليلة ودمنة



الفيل الجبار

اعداد: راجي عنايت
رسوم: بهجت عثمان

مسح ضوئي واعداد : احمد هاشم الزبيدي
٢٠١٦م

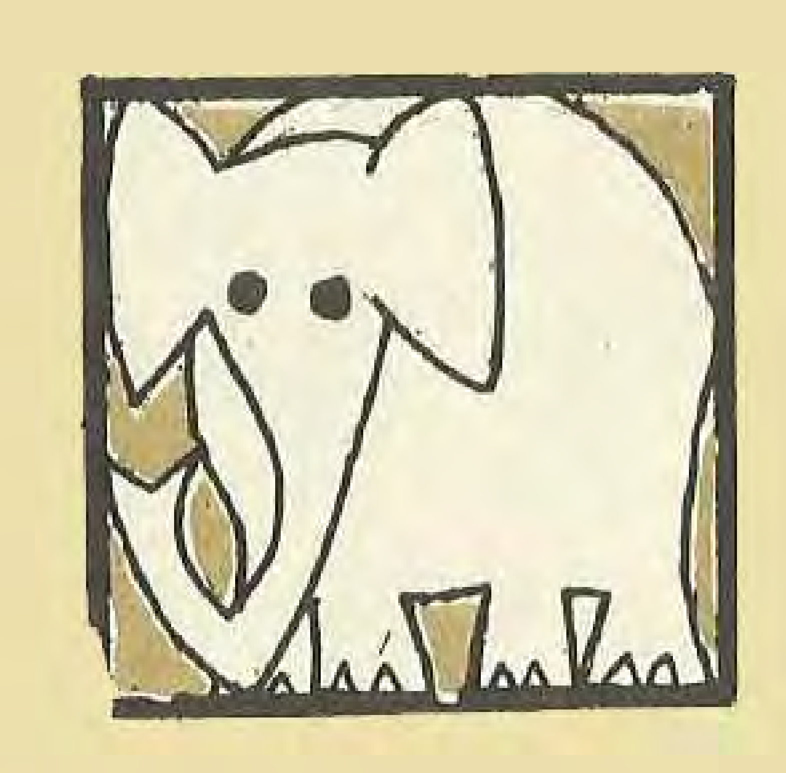


الطبعة الاولى
١٩٧٨

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر
بناية صمدي وصالحة - ص.ب: ١١/٥٤٦٠
بناية برج شهاب - تلة الخياط - ص.ب : ١٩٥١١٩
برقياً : موكيالي - بيروت


الفيل
الجبار



قال العصفور لزوجته العصفورة « هنا سنبني عشنا بعيداً عن ضوضاء باقي العصافير .. بين أغصان هذه الشجرة الصغيرة ، قريباً من البحيرة التي أعشق منظرها .. » . قالت العصفورة « ولكن الا ترى يا زوجي العزيز ان هذه الشجرة صغيرة ، وان عشنا سيكون في متناول الأيدي ، عرضة للأخطار ؟ .. » . ضحك العصفور وهو يقول « أي أيدي .. وهل يأتي احد من البشر الى هذه الناحية البعيدة من الغابة ؟ .. لا يأتي هنا ، سوى الأصدقاء من الحيوانات والطيور .. هيا ! .. دعينا نبدأ في بناء عشنا الصغير ، في هذا المكان الجميل » .

انشغل العصفوران في بناء العش ، يطيران الى كل مكان ، يجمعان القش ويرتبانه بين الأغصان في نظام بديع . وعندما تم بناء



العش ، جلسا داخله يتطلعان الى المنظر من حولهما ، ويستمعان الى نقيق الضفادع التي تعيش على شاطيء البحيرة . قال العصفور « لن أذهب الى رحلتي السنوية الطويلة حتى تضعين البيض ، فأتركك لكي ترقدين عليه ، حتى اعود فأرى صغارنا من حولك » ، فقالت العصفورة « ولكن ... لا تطيل الغياب في رحلتك هذه ، فأنا أشعر بالوحدة هنا في هذا المكان ، بعيدا عن باقي أعشاش العصافير الأخرى . وأنا عندما .. » . توقفت العصفورة عن الكلام ، وظهر عليها الانزعاج الشديد ، عندما سمعت اصوات صراخ عالية تهز المكان .

التصقت بالعصفور وهي ترتعش وتتساءل « ما هذا ؟! » ، ضحك العصفور وقال لها « لا تخافي ، انه الفيل العابث الذي اعتاد في الايام الاخيرة ان يجيء الى البحيرة ليشرب منها ، ثم ينصرف » . فقالت وقد هدأت قليلا « لكن صوته مخيف وقبيح ... » ، قال العصفور « غدا تتعودين على هذا الصوت .. وعلى كل حال ، ليست لنا به صلة ما ، هو في حاله ، ونحن في حالنا » .

عندما وضعت العصفورة بيضها ، ورقدت عليه ، قال لها العصفور « آن الأوان لكي أبدأ رحلتي السنوية ، فاحرصي على بيضنا ، وامنحيه كل الرعاية ، حتى يفقس لنا صغارا من العصافير الجميلة ، نحبها وتشاركنا حياتنا ، أما انا فسأحضر لهم معي من رحلتي ، هدايا جميلة تعجبهم » .

قبّل العصفور زوجته ، وانطلق يطير مسرعاً ، وهي في عشها فوق البيض تراقبه مبتعدا ، حتى تحول الى نقطة صغيرة في السماء ، ما لبثت ان اختفت تماماً .



عملت العصفورة بوصية زوجها ، فكانت تبقى معظم وقتها فوق البيض لا تتركه الا لتسعى بحثا عن طعامها . وما إن تنال منه القليل حتى تعود مسرعة الى عشها ، ترقد فوق البيض مرة ثانية . وكانت تفكر في زوجها العصفور ، وتتمنى ان يعود سريعا ، حتى تراه وتسعد بصحبته ، خاصة في الأوقات التي يقبل فيها ذلك الفيل الجبار الى البحيرة ، يدب بأقدامه فتهتز الأرض من تحته ، ثم يطلق صرخاته الحادة العالية ، التي تبعث الخوف الى قلبها .

كانت تراقب ذلك الفيل وهو يلهو عند البحيرة ، وتظل خائفة حتى يشرب وينصرف مبتعدا . كانت ترى كيف يعامل الحيوانات بقسوة وعنف ويسخر منها،ثم يزيحها من طريقه مستخدما خرطومه الطويل ، فترتمي تلك الحيوانات مبتعدة عنه وهي تئن وتتوجع من جروحها وآلامها ، ثم تراه يسخر منها جميعا ، ويمضي في طريقه يتغنى بقوته التي ليست بعدها قوة .

وذات يوم ، عادت العصفورة من رحلتها اليومية للبحث عن الطعام ، فوجدت الفيل يلهو قريبا من الشجرة الصغيرة التي تسكنها . حاولت ان تسرع الى عشها دون ان ينال منها الفيل ، لكنها رأته يرقص ويتقافز ويغني فيثير من حوله الغبار . وعندما اقتربت من الشجرة الصغيرة ، رأته يرتمي عليها بجسمـــه ، فتهتز الشجرة حتى تكاد تنخلع من جذورها ، ويطير العش في الهواء ، ليسقط على الارض وقد تهشم البيض ، واقدام الفيل الغليظة تطأ ما بقي سليما من البيض .

غضبت العصفورة غضبا شديدا ، واصابها حزن قاتل ، فلم تدر ماذا تفعل ؟.. طارت الى اقرب شجرة ، ووقفت فوق غصـــن من أغصانها ، تبكي ثم تبكي ، وتلعن الفيل الجبار الظالم الذي قتل اولادها قبل ان يخرجوا من البيض .

لم تطق الوقوف على ذلك الغصن ، فطارت الى اقرب غصن من الفيل وهي تصيح « اسمع !.. توقف قليلا عن عبثك ايها القاتل الجبار !... » . لكن الفيل واصل عبثه ولهوه دون ان يشعر بوجودها . فانتظرت حتى انتهى من رقصه ، وهم بالعودة من حيث أتى ، فحلقت ثم وقفت فوق رأسه قريبا من أذنه الكبيرة المفلطحة ، وأخذت تصرخ باعلى صوتها .

أخيرا .. شعر بها الفيل ، فرفع اذنه العريضة الى أعلى حتى يسمع حديثها . قالت له غاضبة « أليس في قلبك ظل من الرحمة ايها الجبار



حتى تسقط عشي من فوق الشجرة ، وتحطم البيض الذي فيه ، ثم تدوسه بأقدامك الغليظة ؟... » .

توقف الفيل في مكانه حائرا بعض الوقت ، ثم سأل « ما هذا الذي تتكلمين عنه ؟.. أي عش ؟.. وأي بيض ؟.. أنا لم أر شيئا من هذا » . قالت العصفورة « هناك .. ألا ترى هذه الشجرة الصغيرة التي ملت عليها بجسمك حتى كدت ان تخلعها من الأرض .. فوقها كان عشي » .

تطلع الفيل الى حيث اشارت ، ثم أطلق ضحكة عالية وهو يقول « هذه ليست غلطتي ايتها العصفورة الحمقاء .. لماذا تضعين عشك هنا ؟.. لماذا لا تضعينه فوق الاشجار الكبيرة كباقي العصافير ؟ » . قالت العصفورة الحزينة « لقد اختار زوجي هذا المكان لجماله وهدوئه .. » ، فضحك الفيل ، وبدأ يتراقص في مشيته « هذا عصفور شاعر فنان ، يختار لسكناه المكان الجميل !!.. ها ها ها .. عصفور أحمق لا يعرف كيف يختار لبيضه المكان الأمين !!.. ها ها ها... » .

قالت العصفورة غاضبة « وما العيب في اختيار المكان الجميل وماذا يضيرك لو شربت من البحيرة ، ثم عدت الى بيتك ، فلهوت وعبثت هناك ، بحيث لا تؤذي الآخرين ؟.. أنت هكذا تهوي ايذاء الآخرين ... لقد كنت أراك كل يوم وانت تعتدي على باقي الحيوانات بخرطومك هذا ... فتجرحهم وتتركهم يتألمون... لماذا هذه القسوة وهذا الظلم ؟ ... » .

طوح الفيل بخرطومه غاضبا وهو يصيح « ابعدي من فوق رأسي أيتها الحمقاء ، قبل أن أضربك ضربة تنهي حياتك .... هيا ابتعدي » . وضرب بخرطومه الهواء ، فطارت العصفورة مبتعدة في اللحظة الأخيرة ، وهي تبكي غيظا من قسوة الفيل . ثم انطلق الفيل مستأنفا لهوه وصراخه يبعث الرعب في قلوب حيوانات الغابة وطيورها .



عاد العصفور من رحلته ، وكانت صدمته كبيرة ، عندما علم من زوجته الحزينة بالذي حدث في غيبته . فأخذ يخفف عنها حزنها ويقول « لا تحزني ، فغدا صباحا نبدأ في بناء عش فوق الشجرة العالية القريبة ، التي لا يستطيع الفيل أن يهزها بجسمه » ، لكن العصفورة واصلت البكاء ، وهي تقول « وما الفائدة بعد ان تكسر البيض ، وحرمنا من الصغار ؟... » . قال العصفور « لا تحزني هكذا ، غدا ننتهي من بناء العش الجديد ، فتضعين بيضك ... وعندما يفقس البيض وترين صغارك من حولك ستنسين أحزانك هذه كلها » .

أخذ العصفور يتحدث الى زوجته ، ويصور لها حياتهما القادمة ، حتى عادت اليها الابتسامة ، وتحمست لبناء عش جميل معه ، فجاء

اكبر من عشهما السابق ، حتى يتسع لهما مع الصغار .

عندما وضعت العصفورة بيضها هذه المرة ، انشغل العصفور في جمع الطعام وتخزينه داخل العش ، حتى لا تضطر العصفورة الى ترك البيض بحثا عن طعامها ، أثناء سفره في رحلته . وعندما اطمأن العصفور الى أن الطعام الذي جمعه سيكفي زوجته اثناء سفره ، ودعها بعد ان وعدها بالعودة اليها حتى يطمئن عليها .

كانت العصفورة ترقد على بيضها أغلب الوقت ، ثم تتناول طعامها مما جمعه العصفور ، وترى الفيل كل يوم يتجه الى البحيرة ، يركل الحيوانات الصغيرة التي يمر بها ، ويضرب الحيوانات الكبيرة بخرطومه فتصرخ هاربة ، بينما هو يضحك ويطلق صراخه المرتفع . كانت العصفورة تقول لنفسها « الحمد لله انني قد ابتعدت عن طريق ذلك الفيل الظالم الجبار .... لو كنت بقيت مكاني فوق تلك الشجرة الصغيرة عند البحيرة لكان الآن قد اعتدى على عشي ، وحطم بيضي » .



ذات يوم استيقظت العصفورة من نومها على صوت صراخ حاد ... كأنه صراخ جيش من الفيلة . تطلعت حولها ، فوجدت الفيل الجبار



يشتبك في معركة ضارية مع فيل آخر . قال الفيل الجبار وهو يضرب الفيل الآخر بخرطومه « هذه بحيرتي .. ولن اسمح لأحد ان يشرب منها... اذا أردت أن تشرب ، فاذهب ابحث لك عن بحيرة اخرى ، او نهر بعيد تشرب منه ... » . فقال الفيل الآخر وهو يدافع عن نفسه ، ويتفادى بحرص ضربات الفيل الجبار « وماذا يحدث لو شربنا معا من هذه البحيرة ؟... انها تكفي عشرات الفيلة ، فلماذا تستأثر بها لنفسك فقط ؟ » .

هذه المرة لم يجب الفيل الجبار ، بل ضرب جسم الفيل الآخر بأنيابه الطويلة ، فأحدث في جسمه جرحا عميقا ، جعله يهرب متوجعا متألما . وعندما انصرف الفيل الآخر ناجيا بنفسه ، أطلق الفيل الجبار صرخة عالية اهتزت لها انحاء الغابة وصاح وهو يرقص طربا « انا الفيل العظيم القوي !... اقوى الفيلة كلها ... من يجرؤ على ان يقف في طريقي ، أو يخالف رأيي ؟... انا الفيل الجبار !.. » .

اغتاظت العصفورة ، وتألمت لحال الفيل المجروح ، لكنها قالت لنفسها « ما لي انا وما يفعله هذا الفيل الظالم الجبار ... هذا الطاغية المعتز بقوته .. أحمد الله أنني بعيدة عن طريقه » .

لكن الأمر جرى على عكس ما كانت تتوقع ، فقد تضاعف غرور الفيل ، وأضاع عقله انتصاره على الفيل الآخر ، فمضى يضرب الأشجار بقدمه ، ثم يخبط الأغصان العالية بخرطومه ، وهو يرتفع بساقيه الأماميتين عن الأرض ، فتتساقط أعشاش الطيور على الأرض ، ويروح

يدوس عليها بأقدامه الثقيلة ، فيكسر ما بها من بيض ، ويقتل ما بها من طيور صغيرة لا تقوى على الطيران .

فزعت العصفورة مما يجري حولها ، ولم تدر الا والفيل الجبار يقترب من شجرتها ، ويطوح بخرطومه عاليا ، فيسقط عشها ، وتضطر الى الطيران ناجية بنفسها ، وهيَ ترى بيضها يتهشم تحت أقدامه هذه المرة ايضا . تعالى صياح الطيور وارتفع صوت البكاء ، فتزايدت سعادة الفيل الجبار ، وظل يصيح « أنا القوي !.. أنا الجبار !... » .

بعد أن انتهى هياج الفيل ، اتجه الى البحيرة فشرب منها ، ثم مضى منصرفا ، يغني بصوته الكريه أغنية يتحدث فيها عن قوته ، وعن قدرته على تحطيم كل من يقف في طريقه .



عندما ابتعد الفيل ، تصاعد صوت بكاء الطيور وصراخها .

هذه المرة لم تبك العصفورة ... لم تصح ولم تصرخ ، بل بقيت فوق غصنها تفكر والغضب يملأ قلبها . ضايقها بكاء الطيور وصراخها من حولها ، فصاحت بأعلى صوتها « كفى صراخا وبكاء !... هل هذا هو كل ما نستطيع ان نفعله .. ألا يمكننا ان نوقف ذلك الفيل الجبار عند حده ؟ ... » .

صمتت الطيور تستمع الى كلمات العصفورة ، ثم قالت الحمامة حزينة على موت صغارها « وماذا نفعل يا أختي العصفورة ؟... كيف نقنع ذلك الفيل الجبار بأن يتركنا لحالنا ؟ ... » . قالت العصفورة بتصميم وهي تفكر تفكيرا عميقا « لن نقنعه .. ولكن سنتخلص من شره !.. » . تصاعدت اصوات الطيور كلها محتجة على هذا القول ... « ماهذا التخريف ؟... كفى احلاما ... اتركينا لحالنا ... كفانا ما نحن فيه ... هذه العصفورة فقدت عقلها من فرط الحزن !... » إلى آخر هذه التعليقات .

لكن العصفورة لم ترد عليهم ، بل طارت وهي تصيح « غدا ترون ما يمكن ان يفعله العاقل ، ليتخلص من شر القوي وجنونه ... وسنرى من الذي يخرف فينا ... » .



طارت العصفورة حتى ادركت مملكة الغربان ، وسألت عن ملكها ، فقادوها اليه . جلست العصفورة بين يدي ملك الغربان تقص عليه ما فعله الفيل الجبار . وكيف حطم بيضها في المرتين ، ثم ما فعله مع الطيور الأخرى ... وما يفعله مع الحيوانات المسالمة . قال لها ملك



الغربان مندهشا « ولكن ... كيف تظنين ستكون مساعدتي لك ؟ » .

قالت العصفورة « لقد وضعت خطة كبيرة ، اعتمد عليكم يا أبناء مملكة الغربان في تنفيذ الجانب الأول منها ... هذا اذا كنتم قد اقتنعتم بقسوة ذلك الفيل ومظالمه ... » . قال ملك الغربان « نحن مقتنعون بكلامك تماما ... بل لقد وصلتنا أخبار ذلك الفيل من قبل ... ولكن ماذا تريدين منا ان نفعل ؟ » .

تنهدت العصفورة ، ثم قالت « اريد منكم أيها الملك أن تأمر كل جندك بالهجوم على ذلك الفيل الجبار ، والتجمع حوله مرة واحدة ، بحيث لا يستطيع الدفاع عن نفسه . أطلب من الغربان أن يستمروا في نقر عيونه حتى يفقدوه بصره ... » .

فكر الملك قليلا ثم قال « وماذا تستفيدين من فقدان الفيل لبصره ؟... فربما اذا حدث ذلك صار أكثر شرا وعدوانا على سكان الغابة » . قالت العصفورة « كل ما أطلبه منكم هو أن تقوم الغربان بهذا الجانب من خطتي ، اما الباقي ، فعندي له تدبير آخر ... هل انتم مستعدون لذلك ؟ » . قال ملك الغربان « كل الاستعداد ... » .



عندما حل الظلام ، كان الفيل في طريقه الى بيته ، يصيح ويصرخ . ولما وصل الى جانب من الغابة ، كثيف الأشجار متشابك الأغصان ، تمهل في مشيته ، فسمع صرخة واحدة اطلقتها عشرات الغربان ، التي هجمت عليه في وقت واحد . مجموعة وقفت فوق رأسه تخبط عينيه بمناقيرها ، بينما اخذت مجموعة أخرى تحوم حوله ، وتشغله بمعاكساتها . حاول الفيل ان يدافع عن نفسه بتحريك خرطومه . لكن الخرطوم كان يرتطم بالأغصان اليابسة فيوجعه . وعندما أغمض الفيل عينيه هربا من مناقير الغربان وحاول أن يندفع هاربا ، لم يكن يرى طريقه ، فكان يندفع خابطا رأسه بجذوع الأشجار الكبيرة .

دامت المعركة بين الفيل والغربان زمناً طويلا . الفيل يدافع عن نفسه فيطرد بعض الغربان ، لتهجم عليه مجموعة أخرى . كان يجري مندفعا ، فيرتطم بالأشجار ، ويقع على الأرض ، فتهجم عليه الغربان ، وتضرب عينيه بمناقيرها .



صباح اليوم التالي ، كانت العصفورة تقف مع باقي الطيور فوق شجرة عالية . قالت العصفورة « اليوم سترون تنفيذ الخطوة الأولى من



خطتي .. وبعدها نتخلص من ذلك الفيل الجبار » . فصاح طائر يقف فوق غصن مرتفع « هل انت متأكدة تماما مما تقولين ؟... انني أرى الفيل قادما من بعيد ... لا يبدو أنه مصاب بأي ضرر ! » .

صمت الجيمع ، يرقبون الفيل الجبار وهو يقترب ، وكانت دهشتهم كبيرة عندما وجدوه يتخبط في مشيته ، يرتطم بالأشجار فيتراجع مذعورا ، ليرتطم بشيء آخر ، فقال احد الطيور « غريب أمر الفيل .. هل ينوي ان يحارب أشجار الغابة ، بعد ان انتهى من حرب حيواناتها ... » ، وقال طائر آخر « فعلا ... ان حالته اليوم غريبة ... ما هذا الذي يفعله... وماذا يقصد منه ؟ » . صمت الجيمع ينظرون الى العصفورة ، فقالت في صوت عميق « لقد فقد الفيل الجبار بصره !! » . شهقت الطيور متعجبة ... وتصاعدت الأسئلة من كل مكان « وكيف كان ذلك ؟ . ومن الذي أفقده البصر ... وماذا سيفعل بنا بعد أن فقد بصره ؟... » .

قالت العصفورة وصوتها يكسوه الحزن « لقد وعدتكم أن أخلصكم من شر هذا الفيل الجبار ... ونجحت في خطوتي الأولى ... وبعد ايام تنتهي متاعبنا معه » .

كان الفيل يتخبط في مشيته باحثا عن البحيرة . ورأته الطيور يقف فجأة في مكانه ، ويرفع أذنيه يستمع ، فصمتت كل الطيور خوفا من ان يسمع صوتها ، ويهجم عليها ، وارتفعت من عند البحيرة اصوات

الضفادع . ظهرت الراحة على الفيل ، واخذ يتبع الصوت حتى وصل الى البحيـرة.راح الفيل يشرب ، ثم ملأ خرطومه بالماء ، واخذ يرش جسمه بالماء ، حتى يخفف آلامه التي يشعر بها ، بعد ارتطامه في اليوم السابق بالأشجار في معركته مع الغربان .

بقي الفيل في مكانه يستريح قليلا .. ثم مضى يطوح خرطومه في الهواء ، كأنه يحارب عدوا في خياله . قالت الحمامة للعصفورة « اخشى ان تشتد ثورته هذه فيحطم كل شيء في الغابة ... لقد اصبح اكثر غضبا وشرا بعد ان فقد بصره » . قالت العصفورة « اطمئني يا أختاه ... غدا نتخلص منه تماما » .



بعد ان انصرف الفيل ، طارت العصفورة ، ثم هبطت قريبا من شاطىء البحيرة ، وأخذت تنادي حتى ظهرت لها ملكة الضفادع . حكت العصفورة لها قصتها مع الفيل ، فقاطعتها ملكة الضفادع قائلة « أعرف ... أعرف ... لقد كنا سعداء بك وبزوجك ، عندما اخترتما الشجرة الصغيرة سكنا لكما .. وقد حزنت عندما رأيت الفيل يحطم عشكما » .



قالت العصفورة « لن يخلصنا من شر ذلك الجبار ، الا انت وافراد مملكتك من الضفادع ... » . سألت ملكة الضفادع باندهاش « ولكن ... كيف يكون هذا ؟ » . قالت العصفورة « الفيل الجبار لا يعرف الان طريق الماء ، الا عن طريق الأصوات التي تصدرها الضفادع من هذه البحيرة ... وعند نهاية الغابة ، توجد هوة عميقة تطل على الوادي .. كل ما اطلبه منكن ، ان تختبئن خلف حافة الهوة ، وتصدرن اصواتكن » .

سألت ملكة الضفادع مندهشة « وما فائدة ذلك ... » . قالت العصفورة « عندما يسمع الفيل هذه الأصوات سيظن انه قد اقترب من البحيرة ، فيتقدم ليسقط في الهاوية ، وهكذا نتخلص من شروره » .



تمت الخطة كما رسمتها العصفورة . ففي اليوم التالي أخذ الفيل يسير هنا وهناك ، متسمعا صوت الضفادع ، بحثا عن الماء . كان يحس بالعطش الشديد ، يسير حذرا حتى لا يصطدم بالأشجار . وعندما سمع صوت الضفادع، اسرع في خطواته . وعندما اقترب من الهاوية ، ارتفع

صوت الضفادع كلها في نغمة واحدة ، فاندفع الفيل الظالم الجبار ليسقط في الهاوية .

وهكذا تخلصت الغابة من شروره ، بفضل العصفورة الذكية الشجاعة التي رفضت ان تستسلم لليأس ، وتترك الفيل يحطم حياة اهل الغابة . وقد فرح سكان الغابة بالتخلص من ذلك الفيل الظالم . وأخذت الحيوانات تتجمع راقصة ، والطيور تحوم حولها مغنية . اما العصفورة فقد كانت مشغولة ببناء عش جديد ، تستقبل فيه زوجها عندما يعود من رحلته ، ليبدأ حياة جديدة خالية من الظلم والخوف .

